المحاضرة الرابعة: بيان قيمة نظرية النظم في البحث اللغوي والنقدي المعاصر

د. باديس لهويمل قسم الآداب واللغة العربية مارس ٢٠٢٠

إن نظرية النظم عند الجرجاني يراد بها إدراك المعاني النحوية، والتنسيق فيما بينها وبين المعاني النفسية(قصد المتكلّم وأغراضه)، في سبك الكلام وحبكه، بما يتلاءم مع المعنى المراد إفادته السّامع، مع مراعاة سياق الحال.

وقد وجدنا الجرجاني يركز كثيرا في سبيل هذا على **نحو الجمل والمعاني وصولا إلى معاني التراكيب، وفروق الأداء اللغوي فيما بينها**، رغم أنها قد تبدو عادية مألوفة لغير المتمعّن فيها، ولا الخبير بسياقات نظم الكلام ومواضعه، بيد أنها للبليغ المتأني في تحليلاته المدرك لمواطن سَوق الكلام، تحمل فروقا في الأداء اللغوي؛ فيكون لكل من وجوه التركيب سياق نظمي يحتويه، وقصد يبتغيه الناظم باستعماله.

فليس النظم إلا توخي معاني النحو وأحكامه وفروقه فيما بين معاني الكلم، وهو يعتمد على النحو كثيرا لكنه يتجاوز حدود الحكم بالصحة والفساد إلى البحث في العلاقات التركيبية ومحاولة الوقوف على معانيها التي كانت سببا في الجودة كالتقديم والتأخير فالنموذج النحوي إذن هو الأساس في الوقوف على معايير التعلم السليم والجودة الفنية لكن يجب أن يشمل النحو علم المعاني فيتجاوز القواعد الجافة لعلم النحو، وحسب الباحث "حسين خمري" فالنحو في فكر عبد القاهر الجرجاني يتمظهر على مستويين: مستوى وظيفي بحت، ومستوى جمالي"[١]. وكأني بعيد القاهر الجرجاني يؤسّس للدرس البلاغي بالدرس النحوي.

ومن الضروري كما هو معلوم بداهة في فقه اللسان العربي أن نقف على ما يصحّ وما لا يصحّ قبل كل شيء ،ثم يأتي الدرس البلاغي تاليا له ليبحث في اللطائف اللغوية وخواص التراكيب.

إن هذا الدور الأساسي للنحو الذي انتبه له الجرجاني قديما، وحث عليه باعتبار،"النحو" مساهما في النظم الجيد دقيق التركيب والنسج، من خلال مزجه بالبلاغة هو الذي نحن بحاجة له اليوم، دون تعلم وحفظ قواعد جافة منعزلة عن أمثلتها الحية، فنظرة عبد القاهر الجرجاني كانت نظرة تعليمية ديتاكتيكية تبين أفضل طريقة لتعلم النحو العربي من خلال ربطه بالمعاني وتوظيف الأساليب الجيدة المساعدة على سر أغوار معاني النحو.

لا غرابة إذن أن تكون نظرية النظم مثالا حيا لتكامل المعارف وتفاعل الأنساق، ذلك أنها تتقاطع مع أحدث النظريات الغربية، فكلما ظهرت نظرية إلا ووجدنا لها دورا وتوطئة في "الدلائل" كيف لا وهو يقوم على ربط النحو بالبلاغة في علاقة تلازم، ويهدف لدراسة القرآن الكريم وبيان إعجازه، **فإذا كان القرآن الكريم معجزا بآياته ونظمه، وصالحا لكل زمان ومكان، فإن كتابا مثل الدلائل وضع لبيان إعجازه سيكون لا محالة صالحا للتقابل مع كل نظرية تظهر باعتباره نشأ في ظل الكتاب المعجز، فأكسبه ذلك نوعا من الخلود أيضا.**

و يمكن من خلال ما ورد في "الدلائل" وما قمنا بتحليله أن نحدد لنظرية النظم أركانا نراها تقوم عليها أساسا وتدور كل معاني الكتاب في فلكها وهي[٢]:

١. ترتيب المعاني في النفس

فلا تُنطق الألفاظ إلا على حسب ترتيب المعاني في النفس "فإذا وجب لمعنى أن يكون أوّلا في النفس وجب للفظ الدال عليه أن يكون مثله أولا في النطق"[٣]. فأولى مراحل النظم تدور في الذهن حيث تتم الملاءمة بين المعنى النفسي واللفظ قبل خروجها للتأليف في عملية لغوية تبدأ بالنطق.

٢. التعلق النحوي

إن الألفاظ لا توضع في التركيب كيفما كان بل توضع في تآليف مختلفة تربطها علاقات نحوية "فلا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض وتجعل هذه بسبب من تلك"[٤].

ومصطلح "التعليق" عند الجرجاني يعني إنشاء العلاقات النحوية من معاني النحو فتكون متناسقة ومنسجمة في شبكة لغوية واحدة.

٣. تخير الموقع

فيجب أن نحسن اختيار الموقع لكل لفظ، ذلك أن تعلق الألفاظ ببعضها لا يكفي "و هل يقع في وهم وعن جهد أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر في مكان تقعان فيه من التأليف والنظم"[٥].

فالموقعية تشكل دورا مهما في تحقيق جودة النظم، وترتبط بالسياق إذ قد تكون اللفظة فصيحة مأدّية للغرض في موقع، وتكون عكس ذلك في موضع آخر، والسياق اللغوي مع مراعاة المقام وغرض المتكلم هو ما يحدد الموقع المناسب للفظة ما، على حساب أخرى "و ليس من فضل ومزية إلا بحسب الموضع" وبحسب المعنى الذي تريد والغرض الذي تؤمّ"[٦].

٤. معاني النحو

و قد عني بها عبد القاهر الجرجاني أيما عناية فإذا كانت الألفاظ ترتب حسب ترتيب المعاني في النفس بحيث تتعلق بعضها ببعض، وتقع موقعها الملائم من النظم فلا بد من وسيلة لمعرفة الفروق الدقيقة بين نظم ونظم، والتي بها يكون التفاوت والتفاضل هذه الوسيلة هي معاني النحو، وهو غير الإعراب، وإنما المراد ما وراء ذلك مما يستنبط بالفكر والروية التي يستعان بها، لأن هذه المعاني إضافية تقوم على قوانين النحو وأصوله وتقع هذه المعاني في طوائف منها[٧]:

أ. **معاني أقسام الكلم:** كالحدث والزمن، الاسمية والكنية والاستعلاء وابتداء الغاية والعطف والاستدراك...

ب. **معاني الصيغ:** كالطلب والصيرورة والاتخاذ والمطاوعة.

ج. **معاني أساليب الجمل:** كالخبر، التأكيد والشرط والإنشاء والطلب والتعجب.

د. **معاني أبواب النحو:** كالإسناد، التبعية، التعدية، الصرفية، والغائية...

فهي عديدة لا حصر لها وكلها تقوم في سبيل تحقيق النظم داخل النص، فتتحقق على ضوئها معايير نصوصية النص، وكأن الجرجاني يريد التأسيس لعلم لغة نصي عربي، حيث يؤكد كلامه هنا وفي بقية العناصر على عناصر تحقيق الاتساق والانسجام كما وقف عليها علماء الغرب ثم إن هذه العناصر أو الأركان الربعة إذ تمكن المتكلم منها، نقول أنه تحصل على ما يسمى بالكفاءة التداولية التي تمكنه من ترتيب المعاني وتعليقها مع بعضها في الموقع المناسب مراعيا معاني النحو وقصد المتكلم وحال السامع **فنظم الجرجاني إذا هو نظم تداولي. يقوم على أركان تحوي بين طياتها أحدث الأفكار اللسانية وهي الأركان ذاتها التي تجعل – نظرة النظم مرنة مطواعة قادرة على استيعاب كل تيار أو مدرسة لسانية تدعي لنفسها المعاصرة** وبالتالي لو أخذ الغرب بما جاء عند الجرجاني أو بالأحرى لو تعرض علماء اللغة الغرب في تاريخهم لعلم اللغة العام بما جاء في الحضارة العربية الإسلامية من دُرر ونفائس لغوية لكان حال العلوم اللغوية اليوم أكثر مما هو عليه وبالتالي فالغرب محروم من "مستخلصات ثمانية قرون من مخاض التفكير اللغوي عند العرب"[٨].

ولعلّ السبب في هذا، هو **التعصب الديني،** الذي جعلهم يقفزون على ثمانية قرون من التاريخ، تمثل فترة ازدهار الحضارة العربية، ورغم ذلك كانوا يأخذون بعض هذه النفائس دون الإقرار بها، ما جعل التقاطع يظهر بوضوح بين نتائج أبحاثهم وما في تراثنا العربي، وهنا تظهر أهمية الربط بين الفكر اللغوي الحديث والتراث اللغوي العربي.

وكخلاصة لهدف نظرية النظم ودورها في إثراء اللغة، نقول مع الباحث "أحمد درويش" أنها تهدف إلى «**إحداث التوافق النفسي بين المعاني النفسية والتراكيب الدالة عليها، ولا يتم إلا بمعرفة عميقة للوظائف النحوية لأدوات النفي أو أدوات الشرط، أو أدوات النداء...و ما يمكن أن يحدثه وضع أداة مكان أداة من تغيير في المعنى وكذلك ندرك أثر نوعية الكلمة وموقعيتها في المعنى، فالكلمة المعرفة غير الكلمة المنكرة والمعارف كذلك متفاوتة فليس معنى الضمير مُساويا لمعنى الموصول أو الإشارة، هذه العلاقة بين المعنى النفسي والوسائل النحوية التي تؤديه، هي العلاقة التي اهتدى إليها صاحب نظرية المعاني وأطلق على هذه الكلمة اسم نظرية النظم**»[٩].

وأعلى صورة وأرقاها في النظم تتمثل في **نظم القرآن الكريم المعجز**، حيث الكلمات والتراكيب سهلة مفهومة ومتداولة ولكنها جاءت على نمط من "النظم" غاية في الدقة، وهو ميزان مهم في النظم، يقاس من خلاله الشعر والنثر، **وهكذا تقف نظرية النظم كيفا إلى كيف مع أحدا النظريات اللغوية في الغرب، كما يقول تمام حسان، بل وتفوقها في مجال فهم التراكيب اللغوية،** حيث جعل النظم دليلا على الكفاءة الذهنية التي يعتمد عليها المرسل (المتلقي) في انجاز الخطاب وفهمه من خلال المواءمة بين الكفاءة اللغوية الكامنة في الذهن وعناصر السياق الخارجي[١٠].

فنظرية النظم تشكل بحثا عميقا في اللسانيات الحديثة، خاصة لسانيات النص سبق فيه عبد القاهر الجرجاني بثاقب فكره، وناقد بصره زمنه بكثير.

كما أدرك الجرجاني بوعيه الحصيف أن الوصول إلى الانسجام يُحتّم تضافر النحو والبلاغة، وعَمَلِهما متكاملين فيما بينهما، ذلك أنّ النحو بدون بلاغة قوالب شكلية فارغة، والبلاغة بدون نحو مجرد صور مفككة.

فالجرجاني حريص كل الحرص عما يسمى "بالتطابق اللفظي"، **والنظم عند عبد القاهر الجرجاني لابد له من أمرين اثنين: المعنى الذي يريد التحدث عنه، ثم اللفظ الذي نعبر به عن هذا المعنى، فإذا اختلف الغرض الذي يريد التعبير عنه، فلا بد أن يختلف اللفظ، وهذا جوهر ما تعنى به نظرية السياق، ومنه فبحث الجرجاني في النظم هو في حد ذاته بحث في السياق وانسجام النص، يفيد ضبط المعنى وإثراء اللغة بكشف معاني جديدة تستفاد من السياقات الاستعمالية.**

يقول الجرجاني:"و هل يقع في وهم – وإن جهد– أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم أكثر من أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة

وحشية... وهل تجد أحدا يقول هذه اللفظة فصيحة إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جارتها وفضل مؤانستها لأخواتها"[١١].

يبدو واضحا في هذا المقطع وعي الجرجاني بالنظم، وإدراكه أن قيمة اللفظة تكمن في حسن ملاءمتها لمعاني جاراتها داخل التركيب، لا وهي منعزلة عنه، ذلك أنك تكتسب الفضل والمزية من خلال العلاقات التي تقيمها مع غيرها من الألفاظ.

فالجرجاني في نظريته للنظم يركز كثيرا على معاني التراكيب وفروق الأداء اللغوي فيما بينها، رغم أنها قد تبدوا عادية مألوفة لغير الخبير بسياقات نظم الكلام ومواضعه، بيد أنها للبليغ المتأني في تحليلاته المدرك لمواطن سوق الكلام ، تحمل فروقا في الأداء اللغوي؛ فيكون لكل من وجوه التركيب سياق نظمي يحتويه، وقصد يبتغيه الناظم باستعماله، وهو ما أعطى مباحث نظريته أبعادا لغوية ونقدية مهمة .

لا جرم إذن أن تكون نظرية النظم مثالا حيا لتكامل المعارف وتفاعل الأنساق، ذلك أنها تتقاطع مع أحداث النظريات والمناهج الغربية، وكلما ظهرت نظرية إلا ووجدنا لها دورا وتوطئة في "الدلائل" كيف لا وهو يقوم على ربط النحو بالبلاغة في علاقة تلازم، ويهدف لدراسة القرآن الكريم وبيان إعجازه، فإذا كان القرآن الكريم يعجز بآياته ونظامه، صالح لكل زمان ومكان، فإن كتابا مثل الدلائل وضع لبيان إعجازه سيكون لا محالة صالح للتقابل مع كل نظرية تظهر باعتباره نشأ في ظل الكتاب المعجز.

.

و مما يمكن أن نصل إليه من **نتائج** في المحاضرات الثلاث الخامسة والسادسة والسابعة حول النظم::

- ✓ أن نظرية النظم تمخضت عن فكرة إعجاز القرآن الكريم أين يكمن وكان لها امتدادات قبل الجرجاني فلم تكن بكرا عنده، إلا أن له فضلا كبيرا في تنظيمها وترتيبها في شكل نظرية بيّن أسسها وحدد معالمها.
- ✓ شكل القرآن الكريم موضع دراسة "النظم" بحثا عن إعجازه أين يكمن، وهو نص خالد صالح لكل زمان ومكان، ولذلك فالوصف اللغوي من خلال نظرية النظم، كان صالحا لكي يتقاطع مع كل تيار لساني أو منهج يظهر، فلا ريب في كون نظرية تبحث في نص معجز بيانيا، قد أخذت منه بعض صفات البقاء والاستمرار لتحتوي، كثيرا من الأبحاث والاتجاهات اللغوية الحديثة التي تدّعي لنفسها الأسبقية، ولا نروم من هذا الكلام الاسقاط الأعمى لكل بحث لساني وتخصص معرفي حديث بما في تراثنا فلكل خصوصياته ومكانته.
- ✓ لنظرية النظم عند عبد القاهر وجوه عدة، استغرق تبيانها كتاب "الدلائل كله "منها ما يتعلق باللسانيات ومنها ما يخص النحو، والدلالة والأسلوب مما جعل علماء اللغة يوظفون نظرية النظم،كلٌ بحسب مجال تخصصه.
- ✓ شكل النحو العربي في اتصاله بعلم المعاني مرجعية أساسية لنظرية النظم؛ حيث كان الجرجاني يؤسس للدرس البلاغي بالدرس النحوي، ايمانا منه بأن فقه اللسان العربي يحتم علينا البدأ بمعرفة ما يصح وما لايصحّ أولا، ثم يأتي البحث في تلك اللطائف اللغوية وونمنماتها الصغيرة ،إن صح التعبير ، التي تصير معها التراكيب اللغوية خلقا آخر بما تحويه من معان ثوان.
- ✓ ركّز الجرجاني كثيرا في نظريته للنظم على دور المتكلّم في بناء الجمل والتراكيب، وإنتاجها بداية من المعاني النفسية بداخله، حتى صدورها وتوليد التراكيب بحسب ترتُّبها،ولم يركّز كثيرا على دور المتلقي في فهما،ولعلّ اكبر دليل على هذا جعله مبدأ كلامه في دراسته الجملة، المعنى لا المبنى،وربما كان لمذهبه الأشعري تأثير في توجّهه هذا.
- ✓ تعد نظرية النظم مثالا حيا لتفاعل الأنساق وتكامل المعارف والاختصاصات، لأنها تبحث في نص معجز بيانيا فاكتسبت بعض خصائص إعجازه لتصير مرنة مطواعة قادرة على مواكبة كل تطور لغوي.

✓ هناك ثلاث مصطلحات أساسية ركّزت عليها نظرية النظم: **الوجوه، الفروق، الموضع**، يجب مراعاتها ليتم التبليغ، ذلك أن للغة إمكانات متعددة للتعبير عن مختلف المعاني، ولا يتأتى هذا إلا لمن خبر اللغة وأسرارها، فيتمكن من جعل خطابه يراعي المقام ويتوافق معه، فيوصل المعنى منطلقا في كل هذا من مراعاة أغراض المتكلم وأحوال الخطاب، تمثل **الوجوه** هنا البنية الشكلية بينما **الفروق** المعنى الدلالي العميق؛ فللخبر وجوه متعددة يحددها المقام، وللحال كذلك فروق بين وجوهه، وللشرط كذلك وجوه وشروط مرتبطة بالمتكلم والأمر نفسه يحدث في الفروق بين أدوات الربط، ومراعاة كل هذه الدقائق في الكلام حسب المخاطبين وأغراض الخطاب يسهم في تحقيق النظم.

الهوامـش:

(١) حسين خمري، نظرية النص، ص ٢٢٥.

(٢) ينظر: محمود أحمد نحلة، في البلاغة العربية، علم المعاني، ص ٢٥. وما بعدها.

(٣) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص ٥٨.

(٥)المصدر نفسه ، ص ٥١.

(٦) المصدر نفسه، ص ٨١.

(٧) تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، القاهرة، عالم الكتب، ج٢، ط١، ٢٠٠٦، ص .

(٨) عبد السلام المسدي: التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص ٢٣.

(٩) أحمد درويش: دراسة الأسلوب بين المعاصرة والتراث، ص ٨٨.

(١٠) ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهيري، استراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، بيروت، دار الكتاب الجديد، ط١، ٢٠٠٤، ص ٠٧.

[11]دلائل الإعجاز، ص ٥١.